

من مصادر السيرة النبوية

كتب التاريخ العام

بقلم / د. هاني السباعي

hanisibu@hotmail.com

مدير مركز المقريري للدراسات التاريخية بلندن

يتبادر إلى الذهن أننا نقصد كتاب تاريخ الطبري. نعم نقصده كمثال لكتب التاريخ العام ومن منطلق هذا الفهم نتناول هذا المصدر على النحو التالي: أولاً ما المقصود بكتب التاريخ العام؟

ثانياً: ما حقيقة اتهام الحافظ السليمانى لابن جرير الطبري بأنه كان يضع الحديث للروافض. فهل كان الطبري من علماء الشيعة الإمامية أم كان سنياً؟

ثالثاً: ما حقيقة اتهام الطبري أنه كان يروي عن بعض الرواة الضعفاء والمتهمين لدى علماء الجرح والتعديل كأبي مخنف ومحمد بن السائب الكلبي وابنه هشام وغيرهم؟

رابعاً: تاريخ خليفة ابن خياط ومنهجه في كتابة التاريخ.

خامساً: منهج ابن الأثير في كتابة التاريخ.

سادساً: قراءة سريعة في تاريخ الإسلام للذهبي.

سابعاً: صفوة القول

ونشرع بتوفيق الله للإجابة على هذه الإستفسارات:

أولاً: ما المقصود بكتب التاريخ العام؟

كتب التاريخ العام هي هي مؤلفات تتناول تاريخ الأمم والدول والأفراد بشكل عام قبل الإسلام وبعده إلى زمن المؤلف. وهي تبدأ عادة ببدء الخلق مروراً بقصص الأنبياء والإرهاصات التي حدثت قبل بعثة الرسول صلى الله

عليه وسلم وحتى وفاته ثم تناول تاريخ خلفاء وملوك ومشاهير أهل الإسلام. وهذه الكتب تحوي بين دافتيها سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم ومن ثم اعتمدها العلماء كمصدر من مصادر السيرة النبوية.

ثانياً: ما حقيقة اتهام الحافظ السليماني لابن جرير الطبري بأنه كان يضع الحديث للروافض. فهل كان الطبري من علماء الشيعة الإمامية أم كان سنياً؟

نود أن نثبت أن الذي أثار هذه التهمة قديماً هو الحافظ أحمد بن علي السليماني وهو الذي صرح أن الطبري يضع الحديث للروافض وإزاء تلكم المقولة قال الحافظ أبو حيان إن ابن جرير إمام من أئمة الشيعة الإمامية. ولما كنا بصدد البحث عن الحقيقة فإننا نترك علماء الجرح والتعديل يدلون بشهادتهم لتستبين حقيقة هذه التهمة:

قال الحافظ أبو الوفاء الحلبي الطرابلسي ت 841هـ:

"محمد بن جرير الطبري الإمام المفسر أبو جعفر شيخ الإسلام وصاحب التصانيف الباهرة توفي سنة عشر وثلاثمائة ثقة صادق فيه تشيع وموالة لاتضرأقذع أحمد بن علي السليماني الحافظ فقال كان يضع للروافض"¹

قال الحافظ المؤرخ شمس الدين الذهبي ت 748هـ:

"محمد بن جرير بن يزيد الطبري الإمام الجليل المفسر أبو جعفر صاحب التصانيف الباهرة ثقة صادق فيه تشيع يسير وموالة لاتضر. أقذع أحمد بن علي السليماني الحافظ فقال كان يضع للروافض كذا قال السليماني. وهذا رجم بالظن الكاذب بل إن ابن جرير من كبار أئمة الإسلام المعتمدين وما ندعي عصمته من الخطأ ولايحل لنا أن نوذيه بالباطل والهوى، فإن كلام العلماء بعضهم في بعض ينبغي أن يتأنى فيه ولاسيما في مثل إمام كبير"²

لكن كيف يتهم إمام حافظ مثل السليماني على جلاله قدره لابن جرير الطبري؟! فما أدلته على هذه التهمة؟!

يجيب على هذه الشبهة أيضاً الحافظ شمس الدين الذهبي:

"فلعل السليماني أراد الآتي: محمد بن جرير بن رستم أبو جعفر الطبري رافضي له تواليف منها كتاب الرواة عن أهل البيت رماه بالرفض عبد العزيز الكتاني"³

أما الحافظ ابن حجر العسقلاني ت 852هـ، فينبري مدافعاً عن الطبري قائلاً: "محمد بن جرير بن يزيد الطبري الإمام الجليل المفسر صاحب التصانيف الباهرة مات سنة عشر وثلاث مائة، ثقة صادق فيه تشيع يسير وموالة لاتضر أقذع أحمد بن علي السليمانى الحافظ فقال كان يضع للروافض كذا قال السليمانى وهذا رجم بالظن الكاذب بل ابن جرير من كبار أئمة الإسلام المعتمدين وما ندعى عصمته من الخطأ ولا يحل لنا أن نؤذيه بالباطل والهوى فإن كلام العلماء بعضهم في بعض ينبغي أن يتأنى فيه ولا سيما في مثل إمام كبير مثل السليمانى فلعل السليمانى أراد (محمد بن جرير بن رستم أبو جعفر) ولو حلفت ان السليمانى ما أراد إلا (محمد بن جرير بن رستم أبو جعفر) لبررت والسليمانى حافظ متقن كان يدري ما يخرج من رأسه فلا اعتقد انه يطعن في مثل هذا الإمام بهذا الباطل والله أعلم (..) وقد اغتر شيخ شيوخنا أبو حيان بكلام السليمانى فقال في الكلام على الصراط في اوائل تفسيره وقال أبو جعفر الطبري وهو امام من أئمة الأمامية (..) ونبهت عليه لئلا يغتر به فقد ترجمه أئمة النقل في آلاف⁴ وبعده فلم يصفوه بذلك وانما ضره الاشتراك في اسمه واسم أبيه ونسبه وكنيته ومعاصرتة وكثرة تصانيفه"⁵

وهذه شهادة الحافظ أحمد بن علي أبي بكر الخطيب البغدادي ت 463هـ يترجم للطبري ترجمة مطولة في تاريخه نختار منها:

" قال الشيخ أبو بكر استوطن الطبري بغداد واقام بها الى حين وفاته وكان أحد أئمة العلماء يحكم بقوله ويرجع الى رأيه لمعرفته وفضله وكان قد جمع من العلوم ما لم يشاركه فيه أحد من أهل الآلاف وكان حافظا لكتاب الله عارفا بالقرآآت بصيراً بالمعاني فقيها في أحكام القرآن عالماً بالسنن وطرقها صحيحها وسقيمها وناسخها ومنسوخها عارفا بأقوال الصحابة والتابعين ومن بعدهم من الخالفين في الاحكام ومسائل الحلال والحرام عارفا بأيام الناس وأخبارهم وله الكتاب المشهور في تاريخ الأمم والملوك وكتاب في التفسير لم يصنف أحد مثله وكتاب سماه تهذيب الآثار لم أر سواه في معناه الا انه لم يتمه وله في أصول الفقه وفروعه كتب كثيرة واختيار من أقاويل الفقهاء وتفرد بمسائل حفظت عنه وسمعت على بن عبيد الله بن عبد الغفار اللغوي المعروف بالسلمسماني يحكى ان محمد بن

جرير مكث أربعين سنة يكتب في كل يوم منها أربعين ورقة وبلغني عن أبي حامد احمد بن أبي طاهر الفقيه الإسفرائيني انه قال لو سافر رجل الى الصين حتى يحصل له كتاب تفسير محمد بن جرير لم يكن ذلك كثيراً أو كلاماً هذا معناه أخبرنا القاضي أبو عبد الله محمد قال ثنا علي بن احمد بن الصناع عبيد الله بن احمد السمسار وأبي ان أبا جعفر الطبري قال لأصحابه انتشطون لتفسير القرآن قالوا كم يكون قدره فقال ثلاثون ألف ورقة فقالوا هذا مما تفنى الأعمار قبل تمامه فاختصره في نحو ثلاثة آلاف ورقة ثم قال هل تنشطون لتاريخ العالم من آدم الى وقتنا هذا قالوا كم قدره فذكر نحواً مما ذكره في التفسير فأجابوه بمثل ذلك فقال إنا لله ماتت الهمم⁶

على نور ماسبق نستطيع أن نخلص بالنتائج التالية:

(أ) براءة الحافظ العلامة ابن جرير الطبري مما هو منسوب إليه من تهمة الرفض والتشيع ووضع أحاديث لمصلحة أهل البيت.

(ب) أن الحافظ السليمانى اختلط عليه الأمر حيث ظن أن الشيعي أباجعفر محمد بن جرير بن رستم هو نفسه أبا جعفر بن جرير الطبري صاحب التاريخ والتفسير.

(ج) أما الرجل الآخر الذي يتفق إسمه وكنيته ولقبه مع ابن جرير السنّي يقول عنه الحافظ ابن حجر: " محمد بن جرير بن رستم أبو جعفر الطبري رافضي له تواليف منها كتاب الرواة عن أهل البيت رماه بالرفض عبد العزيز الكتاني انتهى وقد ذكره أبو الحسن بن بابويه في تاريخ الري بعد ترجمة محمد بن جرير الإمام فقال هو الآملي قدم الري وكان من جلة المتكلمين على مذهب المعتزلة وله مصنفات روى عنه الشريف أبو محمد الحسن بن حمزة الرعيني وروى أيضا عن أبي عثمان المازني وجماعة وعنه أبو الفرج الأصبهاني في أول ترجمة ابن الأسود من كتابه وذكر شيخنا في الذيل بما تقدم أولا وكأنه سقط من نسخته أراد الآتي بعد لعل السليمانى الى آخره وكأنه لم يعلم بان في الرافضة من شاركه في اسمه واسم أبيه ونسبه وإنما يفترقان في اسم الجد ولعل ما حكى عن محمد بن جرير الطبري من الاكتفاء في الوضوء بمسح الرجلين إنما هو هذا الرافضي فإنه مذهبه⁷

(د) الطبري من أئمة علماء أهل السنة بشهادة علماء الجرح والتعديل وصيارفة الإسلام في علم أحوال الرجال كالذهبي وابن حجر والبغدادي والطرابلسي وغيرهم.

(هـ) أما أنه كان فيه تشيع يسير وموالة لأهل البيت لاتضري.. لايعني ذلك أن الرجل كان يميل إلى عقيدة الشيعة بالمعنى الإنحرافي؛ فالطبري شأنه شأن بعض العلماء الذين يوالون علياً رضي الله عنه في خلافه مع معاوية رضي الله عنه فقط. وهذه النعوت كان يستخدمها بعض علماء أهل السنة كابن قتيبة فكان يقول عن الرجل أو الراوي أنه شيعي بمجرد الموالة لعلي بن أبي طالب وآل بيته دون الحط من منزلة الشيخين أبي بكر وعمر رضي الله عنهما ودون أن يستتبع ذلك غلو أو سب في عموم الصحابة فإذا تجاوز هذا الحد إلى درجة الغلو فهنا يتحول المصطلح من شيعي إلى رافضي وهم خارجون على منهج أهل السنة والجماعة. هذا هو المقصود من مصطلح شيعي قديماً أما بعد تطور هذا المصطلح عقب العصور المختلفة في تاريخ الإسلام فقد تغير مدلوله الآن وصار مصطلحاً يتناقض ومنهج أهل السنة ومن ثم فلا يتصور أن يستخدم هذا المصطلح في وقتنا الحاضر بغية نعت أحد علماء أهل السنة بحجة أنه يوالي علياً رضي الله عنه وآل البيت لأن كلمة شيعي الآن لها دلالة تختلف عن معناها الإصطلاحي قديماً.

ثالثاً: ما حقيقة اتهام الطبري أنه كان يروي عن بعض الرواة الضعفاء المتهمين لدى علماء الجرح والتعديل كأبي مخنف ومحمد بن السائب الكلبي وابنه هشام وغيرهم؟

مما لا شك فيه أن الطبري روى عن أبي مخنف وابن الكلبي؛ ولنا وقفة مع هؤلاء الإخباريين بعد أن نلقي الضوء على أهم المصادر التي استند عليها الطبري في تاريخه:

الأول: تاريخ الطبري يبدأ منذ بدء الخليقة حتى أحداث سنة 302هـ.
الثاني: مصادر الطبري في تاريخ الرسل والأنبياء ابن إسحاق وكتب وهب بن منبه.

الثالث: في تاريخ العرب قبل الإسلام على مرويات عبيد بن شرية ومحمد بن كعب القرظي وهشام الكلبي وابن إسحاق أيضاً.

الرابع: وفي السيرة النبوية استند إلى مرويات أبان بن عثمان وعروة بن الزبير وموسى بن عقبة وعاصم بن عمر والزهري وابن إسحاق وشرحيل بن سعد.

الخامس: مصادره عن حروب الردة عن مرويات سيف بن عمر والمدائني.
السادس: أما مصادره في معركتي الجمل 36هـ، وصفين 37هـ فعلى مرويات أبي مخنف ومحمد بن السائب وابنه هشام الكلبي وسيف بن عمر.
السابع: ومصادره عن الدولة الأموية من مرويات عوانة بن الحكم وأبي مخنف والواقدي وابن الكلبي وعمر بن شبة.

الثامن: مصادره عن العصر العباسي على مرويات أحمد بن أبي خيثمة وابن زهير والممدائني وعمر بن راشد والهيثم بن عدي والواقدي.
نلاحظ أنه لم يعتمد على مرويات أبي مخنف وابني الكلبي فقط بل إنه قد نوع مصادره كما هو واضح . لكن أخطر مصادره بحق هي مرويات أبي مخنف عن موقعتي الجمل وصفين لأن هناك تزويراً وتلفيقاً وسباً يخلص المرء بعد قراءته لهاتين الموقعتين أن الصحابة رضوان الله عليهم كانوا مجموعة من أصحاب الدنيا الذين يتقاتلون على ملك زائل يشتم بعضهم بعضاً ويسب بعضهم بعضاً وكأن رسول الله صلى الله عليه وسلم - حاشاه ذلك - قد فشل في تربيتهم وتأديبهم وصحابة رسول الله براء من هذه المرويات الكاذبة التي رواها أبو مخنف وابنا الكلبي، ومن ثم لزام علينا أن نلقي الضوء على هؤلاء الإخباريين:

أما أبو مخنف لوط بن يحيى ت 157هـ:

يقول عنه ابن حجر العسقلاني: "إخباري تالف لايوثق به تركه أبو حاتم وغيره، وقال الدارقطني ضعيف. وقال يحيى بن معين ليس بثقة، وقال مرة ليس بشيء. وقال ابن عدي شيعي محترق. وقال أبو عبيد الآجري سألت أبا حاتم عنه فنض يده وقال: أحد يسأل عن هذا وذكره في الضعفاء"⁸

وقال فيه الحافظ عبد الرحمن بن أبي حاتم الرازي ت 272هـ:

"قريء على العباس بن محمد الدوري قال سمعت يحيى بن معين يقول: أبو مخنف ليس بثقة نا عبد الرحمن قال سمعت أبي يقول متروك"⁹

وقال الحافظ أبو أحمد عبد الله بن عدي ت 265هـ: "معروف بكنيته واسمه حدث بأخبار من تقدم من السلف الصالحين ولايبعد منه أن يتناولهم وهو شيعي محترق صاحب أخبارهم"¹⁰

أما عن محمد بن السائب الكلبي ت 146هـ:

يقول الذهبي: "العلامة الأخباري أبو النضر محمد بن السائب بن المفسر وكان أيضا رأسا في الأنساب إلا أنه شيعي متروك الحديث يروي عنه ولده هشام وطائفة"¹¹

وقال الذهبي أيضاً في ميزان الإعتدال عن محمد بن السائب الكلبي:

" وقال يزيد بن زريع وكان سبئيا قال أبو معاوية قال الأعمش اتق هذه السبئية فإني أدركت الناس وإنما يسمونهم الكذابين. وقال ابن حبان (عن ابن الكلبي) سبئيا من أولئك الذين يقولون إن عليا لم يمت وإنه راجع إلى الدنيا ويملوها عدلا كما ملئت جوراً وإن رأوا سحابة قالوا أمير المؤمنين فيها. وقال الجوزجاني وغيره كذاب وقال الدارقطني وجماعة متروك. وقال ابن حبان مذهبه في الدين ووضوح الكذب فيه أظهر من أن يحتاج إلى الإغراق في وصفه"¹²

وقال ابن حجر العسقلاني في تقريب التهذيب: " محمد بن السائب أبو النضر الكوفي النسابة المفسر متهم بالكذب ورمي بالرفض"¹³

أما هشام بن السائب الكلبي ت 204هـ:

يقول عنه ابن حجر: "هشام بن محمد بن أبو المنذر الأخباري النسابة العلامة روى عن أبيه أبي المفسر وعن مجالد وحدث عنه جماعة قال أحمد بن حنبل إنما كان صاحب سمر ونسب ما ظننت أن أحداً يحدث عنه وقال الدارقطني وغيره متروك وقال بن عساكر رافضي ليس بثقة"¹⁴

وذكره الخطيب البغدادي بعد أن ساق بسنده قائلاً: " حدثنا عبد الله بن احمد قال سمعت أبا يقول هشام بن محمد بن من يحدث عنه إنما هو صاحب نسب وسمر وما ظننت أن أحداً يحدث عنه بلغني أن هشام مات في سنة أربع ومائتين وقيل سنة ست ومائتين"¹⁵

وقال ابن عدي في كتابه الكامل في ضعفاء الرجال: " هشام بن محمد بن السائب ومحمد بن السائب والده صاحب التفسير سمعت ابن

حماد يقول حدثني عبد الله سمعت أبا يقول هشام من يحدث عنه إنما هو صاحب سمر ونسبة وما ظننت ان أحدا يحدث عنه وهذا كما قال احمد هشام الغالب عليه الاخبار والاسمار والنسبة ولا اعرف له شيئاً من المسند¹⁶

صفوة القول

إن أبا مخنف إخباري رافضي تالف متهم بالكذب، شيعي محترق. أما محمد بن السائب الكلبي وابنه هشام فهما إخباريان متهمان بالرفض والتشيع وتلفيق المرويات التاريخية.

لكن يبقى السؤال قائماً: لماذا روى الطبري عن هؤلاء الإخباريين رغم تجريح العلماء لهم؟

نجد الإجابة على هذا التساؤل في مقدمة تاريخ الطبري إذ يوضح لنا منهجه بكل صراحة:

"فما يكن في كتابي هذا من خبر ذكرناه عن بعض الماضين مما يستنكره قارئه أو يستثنعه سامعه من أجل أنه لم يعرف له وجهاً في الصحة ولا معنى في الحقيقة فليعلم أنه لم يؤت في ذلك من قبلنا وإنما أتى من قبل بعض ناقله إلينا وأنا إنما أدينا ذلك على نحو ما أدى إلينا"¹⁷

هكذا يلقي الطبري تبعة الرواية على عهدة الراوي لأنه يعلم أنه بمجرد ذكر اسم الراوي الذي أخذ عنه الخبر أو الحديث فإنه يكون قد أدى الأمانة لأصحابها لأن الناظر علمه بحال الراوي وخاصة في حالة الرواة المجروحين فإنه لن يقبل هذه الرواية الواهية أو المكذوبة. وهذه كانت طريقة كثير من علماء السلف قديما الذين لم يكونوا يشترطون على أنفسهم الصحة في كل المرويات التي يكتبونها. وكنا نود أن يعلق الطبري على الأخبار والخرافات والأساطير والأكاذيب التي قيلت في حق الصحابة رضوان الله عليهم وخاصة في موقعتي الجمل وصفين تلك المرويات التي اعتمد عليها كل من أراد النيل من تاريخ الصحابة الأخيار رضوان الله عليهم حتى صار الأمر ببعض البسطاء باعتقادهم أن ما شجر بين الصحابة مسلم به لأنه مروى عن ابن جرير لأنه المصدر الأساسي لكل هذه الكتب التي تناولت الحقبة التاريخية الأولى التي رواها الإخباري الخبيث أبو مخنف وابنا الكلبي. هكذا بعد هذا التطواف نستطيع أن نؤكد أن الطبري إمام حافظ ثقة براء مما هو منسوب إليه رحمه الله

- الكشف الحثيث/أبوالفواء الحلبي الطرابلسي/مكتبة النهضة العربية/بيروت/ج 1/221¹
- ميزان الإعتدال/الذهبي/دار الكتب العلمية/بيروت/ج 6/ص 90²
- المرجع السابق/ج 6/90³
- الآلاف: بتشديد اللام الذين يؤلفون الكتب⁴
- لسان الميزان/ابن حجر العسقلاني/مؤسسة الأعلمي للمطبوعات/بيروت/ج 5/ص 100⁵
- تاريخ بغداد/ الخطيب البغدادي/دار الكتب العلمية/بيروت/ج 2/ص 162 وما بعدها⁶
- لسان الميزان/ج 5/ص 103⁷
- لسان الميزان/ج 4/ص 493⁸
- الجرح والتعديل/ عبد الرحمن بن أبي حاتم/دار إحياء التراث/بيروت/ج 7/ص 182⁹
- الكامل في ضعفاء الرجال/ابن عدي/دار الفكر/بيروت/ج 6/ص 93¹⁰
- (سير أعلام النبلاء/الذهبي/ج 6/ص 248¹¹
- (ميزان الإعتدال/ج 6//ص 161¹²
- تقريب التهذيب/ابن حجر العسقلاني/دار الرشيد/سوريا/ج 1/ص 479¹³
- لسان الميزان/ج 6/ص 196¹⁴
- تاريخ بغداد/ج 14/ص 45¹⁵
- الكامل في ضعفاء الرجال/ج 7/ص 110¹⁶
- تاريخ الطبري/ابن جرير/مؤسسة الأعلمي للمطبوعات/بيروت/ج 1/ص 5¹⁷